الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة أحمد زبانة - غليزان-

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

السنة الثانية: دراسات لغوية (الفوج الأول + الفوج الثاني)

مقياس : أصول النحو(محاضرة عن بعد)

أستاذ المقياس: الدكتور عبد العزيز ناصر

تمهيد:

مما شاع بين عامة الناس وبين الدارسين،أنّ اللغة العربيّة لغة صعبة، وأنّ قواعدها النحويّة ليست سهلة للفهم، إلا أنّ ما شِيعَ عنها دليلٌ على جهل مَن اتّهموها بذلك، وظلمٌ بحقها، فالنّحو العربيّ في حقيقة الأمر ليس كما شِيعَ عنه، وهو ليس صعباً ولا مُعقّداً، بل هو كالعلوم واللغات كافّة، ...ويتميّز النّحو العربيّ بقواعده الثابتة والراسخة، ممّا يجعله سهلاً عند الدراسة، وسهلاً للفهم أيضاً.[1] و تكمن أهميّة علم النّحو في فهم القرآن الكريم إذ يُعدّ عِلم النّحو من أدوات فهم عُلوم القرآن وأهمّها التّفسير الذي يرتبط به ارتباطاً وثيقاً؛ حيث إنّ قواعد النّحو تُساهم في تحليل النّصوص القرآنيّة وفهمها على هيئتها الصّحيحة، وبهذا يكون النّص القرآنيّ سليماً من اللّحن أو التّحريف، ويؤكّد (ابن عطيّة) هذا الكلام بأنّ عِلم النّحو -وتحديداً الإعراب- هو أصلٌ في علوم الشّريعة، ويُعلّل ذلك بقوله: "لأنّه بذلك تقوم معانيه التي هي في الشّرع"، فالجهل بالحركة الإعرابيّة في النّصوص القرآنية يؤدّي إلى تحريف المعنى عن مقصده، وقد تُفضي في بعض المواضع إلى الإتيان بمعنى مقصده "الكُفر"، ومِثاله قوله تعالى: **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)**،[2] فلو تمّ نصب كلمة (العُلماءَ)، ورفع لفظ الجلالة (اللهُ)، لوُضع الله -وحاشاه- في مقام الخشية، وهذا تحريف فظيع، والأمثلة القرآنية كثيرة من هذا القبيل ونذكر منها كذلك قوله تعالى: **(أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)**[3] لو تمّت قراءة الآية بتحريك كلمة **(وَرَسُولِهِ)** -بكسر اللّام- سيفسد المعنى بشكلٍ كاملٍ، إذ سيصبح المعنى: (أنّ الله بريء من المُشركين وبريء من رسوله أيضاً)، وحاشا ذلك، وسبب فساد المعنى يعود إلى الضّبط غير الصّحيح للكلمة.وقوله تعالى: **(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ)**[4] لو تمّت قراءة الآية بتحريك كلمة **(وَيَعْقُوبَ)** -بفتح الباء- أي بعطف كلمة **(يَعْقُوبُ)** على كلمة **(بَنِيهِ)** بالنّصب سيفسد المعنى؛ إذ كيف يوصِي سيدنا إبراهيم -عليه السّلام- يعقوب، وهو لم يُولد بعد. وقوله تعالى: **(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)**[5] لو

---

[1]-د. محمود مغالسة، النحو الشافي، بيروت: مؤسسة الرسالة، صفحة 7. بتصرّف.

[2]- سورة فاطر، آية: 28.

3- سورة التوبة، آية: 3.

4- سورة البقرة، آية: 132.

5- سورة فاطر، آية: 164.

تمّت قراءة الآية بتحريك لفظ الجلالة (اللهَ) -بفتح الهاء- أي؛ بالنّصب، سيفسد المعنى، لأنه في هذه الحال ينفي صِفة الكلام عن الله. وقد نبه (عبد القاهر الجرجانيّ) إلى ذلك، حيث قال في مَن يُقابل عِلم النّحو بالإهمال والاستصغار: "فصنيعهم في ذلك أشبه بأنْ يكون صدّاً عن كِتاب الله، وعن معرفة معانيه"[6]. ولنلاحظ دور الحركات الإعرابية في فهم الجملة التالية والتفريق بين معانيها:

وهذه الجملة هي: **(أكرم النّاس أحمد)**، قد يكون فهمها صعباً دون تشكيل، إلّا أنّه بوضع الحركة الإعرابيّة يتّضح الاختلاف في كلّ مثال **(أكرمَ النّاسُ أحمدَ)** المعنى هو: النّاس هم الذين أكرموا أحمد**. (أكرمَ النّاسَ أحمدُ)**. المعنى هو: أحمد هو الذي أكرم النّاس**. (أكرمُ النّاسِ أحمدُ)**. المعنى هو: أحمد هو أكرمُهم**.(أكرمِ النّاسَ أحمدُ)**. المعنى هو: أي أكرم النّاس يا أحمد.

1- في مفهوم النحو لغة واصطلاحا:

النّحو عند أهل اللّغة العربيّة مأخوذ من المادّة اللّغويّة (نَحَوَ)، ونحا فُلان الشّيء أي قَصَده، وهذا ما ذكره الخليل بن أحمد الفراهيديّ في كِتابه (مُعجم العين)، كما شاركه ابن دريد التّعريف ذاته في كتابه مُعجم (جمهرة اللّغة)، وزاد على ذلك قوله بأنّ النّحو في الكلام هو قصد الصواب منه، أمّا الجوهري فقد أضاف معانٍ عديدة أخرى للنّحو في كِتابه مُعجم (تاج اللّغة وصحاح العربيّة)، فعرّفه بأنّه الطّريق، والانصراف، والعُدول، ومِثال ذلك عند قول: (نحا فُلان بصره إلى شيء) أي عدل بصره وصرفه عنه، وإنّ النّاظر في المعاجم العربيّة سيصل إلى معنى واحد مآله أنّ النّحو بأصله لفظ عربيّ الأصل؛ لما يحتمله من المعاني، ولإمكانيّة تصريفه على أوجه عدّة مِثل:نحا، وينحو، ونحواً، وانتحاء، وناحية،..إلخ، أمّا المعنى العامّ له في المعاجم عامّة فهو (القصد).[7]

ويتميّز النّحو العربيّ عن سائر القواعد النحويّة للّغات الأخرى، بمرونَته في عدم الالتزام بترتيب أركان الجملة في حالات مُعيّنة، مع مُحافَظته على المعنى، كتقديم المفعول به على الفاعل، والخبر على المُبتدَأ.[8] و قد أورد ابن سرّاج تعريفا للنحو بقوله:" **قال أبو بكر محمد بن السري النحوي: النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب، و هو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة، فباستقراء كلام العرب فاعلم : أن الفاعل رفع، والمفعول به نصب، وأن الفعل مما عينه: ياء أو واو تقلب عينه من قولهم: قام وباع[9]. فالنحو إذن: هو القواعد التي استخرجها العلماء من كلام العرب نتيجة دراستهم له واستقرائه. ثمّ تبعه في ذلك ابن جنّيّ بتعريفه للنحو في كتاب (الخصائص)، فذكر بأنّه العِلم الذي**

6- مصطفى كيسكين (2019)، "دور النحو في التفسير من حيث الكشف عن المعنى خالل نماذج من أحكام القرآن للجصاص "، مجلة أبحاث الدراسات الشرقية الإلكترونية–مجلة البحث العلمي الشرقي(JOSR) ، العدد 2، المجلد 11، صفحة 976. بتصرّف.

7- ستار عايد بادي العتابي (2007)، النحو العربي وقضية التجديد والتيسير فيه ـ الواقع والجمود ـ، لندن: الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، صفحة 27.

8-أ. د. عبد المجيد عمر (1437)، منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية (الطبعة الثانية)، المملكة العربية السعودية: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، صفحة 184-185. بتصرّف.

9- محمد بن س هل ابن السراج النحوي البغدادي: الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسن الفتلي، ج1،مؤسسة الرسالة، ط03، 1417هـ-1996م. 1 ص31.

يعتمد على اتّباع نهج كلام العرب في تصرّفه من إعراب أو غيره، كالتّشبيه، والجمع، والتّحقير، والتّكسير، والإضافة، والنّسب، والتّركيب وغير ذلك، والظّاهر من هذا التّعريف أنّ عِلم النّحو يُعنى في دراسة الكلمة وآخرها، تبعاً لارتباطها بغيرها من كلمات داخل الجملة وهو ما يُعرف بالإعراب، وهذا يختلف عن دراسة بُنية الكلمة الذي يُعدّ عِلماً مُنفصلاً آخر يُسمّى بعلم الصّرف.[10] ويجب التّنويه إلى أنّ (ابن جنّي) ذكر في كتابه (الخصائص) وصفاً لعلاقة النّحو والإعراب، بقوله إنّ الإعراب هو نِتاج توارد المعاني على التّركيب، ويقصد بهذا أنّ الكلمة إذا وُجدت مُفردة دون وُقوعها ضمن تركيب لا يصحّ وصفها بصفة الإعراب، كما دعّم كلامه بأنّ الإعراب وُجِد ليُوضّح الفرق بين المعاني المُختلفة لهذه الكلمات ضمن التّركيب الكامل، ولمّا كان ارتباط العلامات النّحويّة بالتّركيب، وما يحمله من المعاني وثيقاً ما أخذ حيّزاً كبيراً في فِكر النّحويين، كما أضاف (الجرجانيّ) أنّ زوال الكلمة من التّركيب يُفقدها الإعراب، ومتى ما وقعت ضمنه حصلت دلالتها ومعناها وإعرابها، وهنا يمكن القول إنّ الإعراب جزء لا يتجزأ من النّحو، وفي المقابل لا يمكن حصر النحو في الإعراب فقط..[11]

2- **تعريف أصول النحو:**

يعرّف ابن الأنباري أصول النحو بقوله: «أصول النحو أدلة النحو التي تفرعت منها فروعه و فصوله، كما أن أصول الفقه أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته و تفصيله. و فائدته التعويل في إثبات الحكم على الحجة و التعليل، و الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الإطلاع على الدليل، فإن المخلد إلى التقليد لا يعرف وجه الخطأ من الصواب و لا ينفك في أكثر الأمر عن عوارض الشك و الارتياب»[12]. يشير هذا التعريف على أن أصول النحو هي أدلّته و حججه .أمّا السّيوطي فيعرفه بقوله: « علم بحُث فيه عن أدلة النحو الإجمالية من حيث هي أدلّته. وكيفيةَ الاستدلال بها، وُحال المستدل"[13] و عليه فإن أصول النحو العربي هي الأسس التي بني عليها النحو في مسائله وتطبيقاته، و وجهت عقول النحاة في آرائهم و خلافهم و جدلهم، و كانت لمؤلفاتهم كالشرايين التي تمد الجسم بالدّم و الحيوية[14] ويهدف هذا العلم إلى معرفة مصدر القاعدة النحويَّة والبناء النحويّ بشكل عامّ، وعلى كيفيَّة الاستدلال من هذا المصدر. وبهذا نرى تمحُور علم أصول النحو حول "البنية النحويَّة" التي تهدف إلى بناء سليم للقاعدة النحويَّة. وبذلك نحدّد هدف العلم في استنباط صحيح للبنية النحويَّة من مصادرها، والقدرة على الاستدلال على صحَّتها -أو على بُطلانها من المُخالف لها-. وكما نلحظ فموضوعات العلم نظريَّة كُليَّة لا نتعامل مع

10- وحيدة محمل (2013)، النحو العربي بين الإبداع والاتباع، الجزائر: جامعة العربي بن مهيدي-أم البواقي-، صفحة 5. بتصرّف.

11- داهية سعو، عديلة زرقيني (2015)، عليم النحو العربي بين مقررات النظام ومطالب الاستعمال، الجزائر: جامعة عبد الرحمان ميرة . بجاية .، صفحة 13،14. بتصرّف.

12- ينطر: الإقتراح في علم أصول النحو: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، د ط، 1426 هـ - 2006م: ص 13 ومابعدها

13- جلال الدين السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: عبد الحكيم عطية، دار البيروتي، ط2 ،1427هـ-2006م. ص2

14--محمد عيد: أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة،ط4 ،1410هـ-1989م. ص05.

الواقع اللُّغويّ بل مع ما يُكوِّن هذا الواقع اللُّغويّ وكيف يُكوَّن. وإذا ما عقدنا مقارنة بين النحو وعلم أصول النحو فإنّ النّحو يعدّ علما أساسيا من علوم العربية يهدف للحفاظ على اللغة من الخطأ واللحن، كما أن في تعلمّه استقامة للسان وفصاحة للكلام، أما أصول النحو فهي أدلة النحو التي تتأسس على أساسها القاعدة النحوية لكي يبقى النحو محافظا على المنوال الصحيح القائم على الشاهد اللغوي.

ويعرّفها سليمان ياقوت بأنها "تلك الأسس أو الأركان التي قام عليها النحو العربي، والتي بموجبها استطاع النحاة أن يسيروا في نحوهم وفق ما سار العرب الذين يستشهد بكلامهم وهذه الأسس هي القياس بأركانه الأربعة... ثم يجيء بعد ذلك .السماع والإجماع واستصحاب الحال"[15] . أمّا يحي الشاوي (المتوفي: 1096هـ)" أصول النحو: دلائله الإجمالية، وقيل معرفتها. والأصولي: العارف بها، وبطرق استفادتها ومستفيدها. والأدلة أربعة: سماع، وإجماع، وقياس، واستصحاب الحال".[16]

لقد ظهر هذا العلم في بداياته الأولى على يد ابن جني المتوفى سنة (392هـ) في كتابه الخصائص "ولعل ابن جني أول من ألّف في هذا الموضوع، وذلك في كتابه (الخصائص)،ولكنه لم يرتب، ويبوّب مادّته كما وردت عند أصحاب أصول النحو المتأخرين عليه مثل ابن الأنباري (ت-577هـ) والسيوطي(ت-911هـ)، والشاوي (ت1092هـ)، بل قدّم وأخّر في الأصول[17].غير أنّ ما ذكرته بعض الكتب أرجعت بداية ظهور هذا العلم إلى عهد المتقدمين من علماء اللغة من أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، وعليّ بن أبي طالب.

3- نشأة علم أصول النحو:

لم يكن العرب في الجاهلية بحاجة إلى تعلّم أصول لغتهم و قواعدها، لأنهم كانوا يتكلّمون بها حسب سليقتهم و طبيعتهم و بيئتهم الّتي نشأوا فيها، فينطقونها نطقا سليما. و لم يتعلّموا اللغة من معلّم أو توجيه مرشد، لأنهم نشأوا وكبروا و هم لا يعرفون إلا اللّغة العربيّة، التي يستعملونها في حياتهم اليوميّة و يديرون بها أعمالهم رغم اختلاف قبائلهم و لهجاتهم . و كان لنزول القرآن الكريم أثر كبير في توحيد لهجات العرب و جعلهم يتمسكون بلغته التي كانت أفصح لغات العرب، فقد نزل بلسان عربي مبين، و ذلك لقوله تعالى :عربي ﴿و إنه لتنزيل رب العالمين(192) نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين(195)﴾ 195/192.الشعراء.

وعند انتشار الفتوحات الإسلامية اختلط العرب بغيرهم من الأمم والأقوام الأخرى، فتأثّرت العربية و ألسنة النّاطقين بها بلغات هذه الأقوام، فنشأ اللّحن و فشت العجمة التي كادت أن تفسد العربية، ففكر العرب أن يعودوا إلى لغتهم التي وحدّها كتاب الله لجمعها و الحفاظ عليها، و من أهم الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك خوفهم على القرآن الكريم من أن يصيبه التحريف، إضافة إلى رغبتهم في جمع تراثه الأدبي والفكري و ضبط

---

[15]– محمد الحباس، النحو العربي والعلوم الإسامية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ص22.

[16]– يحيى بن محمد أبو زكريا الشاوي المغربي الجزائري، إرتقاء السيادة في علم أصول النحو، تحقيق: عبد الرزاق عبد الرحمن السعدي ، دار الأنبار، الرمادى، العراق، 1990م – 1411هـ ، ص:35.

[17]– حامد ناصر الظالمي. أصول الفكر اللغوي العربي في د ارسات القدماء والمحدثين، د ارسة في البنية والمنهج. سلسلة دراسات. الطبعة الأولى، بغداد: 2001 ..ص: 78.

لغتهم ليسهل على أبنائها الّذين ولدوا بعد الفتوحات الإسلامية[18]، و على الأجيال القادمة بعدهم، و على الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام التعبير بلغة فصيحة و فهمها.

فرحل علماء اللّغة إلى البادية العربية ليتصلوا بالعرب الأقحاح و جمعوا الكلمات الفصيحة وحددوا معانيها. و كان القرآن أيضا المنبع الأول لعملهم، حيث رجعوا إليه ونظروا في مفرداته، وبيّنوا معانيها و أغراضها، واعتمدوا أيضا على الشعر في ضبط لغتهم و حصر ألفاظها.

وبعد أن جمع العلماء مقدارا كبيرا من اللّغة و الأدب، و بعد أن رأوا اللّحن يتفشى بين ألسنة العرب، أخذوا يفكرون في وضع قواعد و أصول يصونون بها لغتهم و يضعونها أمام الناشئة.

واعتنى علماء العربية بأصول النحو التي وضعوا على أساساها النحو العربي،و اهتموا بالسّند ورجاله ، ووضعوا لروّاة العربية طبقات كما كان لرواة الحديث طبقات. ثم جاروا الفقهاء في وضعهم للنحو أصولا تشبه أول الفقه.. و هذه الأصول هي: السّماع، والقياس، والإجماع، والاستصحاب .

و قد ألّفت في هذه الأصول كتب تحمل اسم الأصول، مثل :كتاب "الأصول" لأبي بكر بن السّراج،أو تحمل اسم أصل من هذه الأصول مثل كتاب "المقاييس" لأبي الحسن الأخفش، أو جزء من هذه الأصول مثل كتاب "الإيضاح في علل النحو" لأبي القاسم الزجاجي19

لقد بدأ عِلم أصول النّحو على هيئة غير مُنفصلة عن علوم اللّغة العربيّة الأخرى، فلم يكن هُناك تمييز بينه وبين علوم النّحو، أو البلاغة، أو التّصريف، أو العروض، وغيرها من العلوم، ومع تطوّر عمليات التّأليف لاحقاً بدأتْ العُلوم تُفصّل وتُميّز بشكل مُستقلّ، أمّا بخصوص عِلم أصول النّحو فقد فصّل أبو بكر بن السّرّاج مسائله ومحّص الدّقائق الواردة فيه، وهذا ما جعل لِكتابه (أصول النّحو) دوراً كبيراً في هذا العِلم، بالإضافة إلى إشارته فيه إلى أقسام العِلل النّحويّة، والضّرورة الشّعريّة، كما أضاف كِتاب (الإيضاح في عِلل النّحو) للزّجاجيّ الكثير لهذا العلم، إذ حوى تفصيلاً للعِلل النّحويّة، كما قَدِم بعدهما أبو الفتح ابن جنّيّ صاحب كِتاب (الخصائص)، والذي يُعتبر أوّل المُشيرين إلى هذا العِلم، والحاثيين على تحريره فبحث فيه وطوّره، ويقول فاضل السّمرائيّ بهذا الخصوص أنّ عِلم أصول النّحو قديم حاله حال عِلم النّحو، ويُعلّل علاقة وجودهما معاً بأنّ القبول، والتّرجيح، والرّفض والقياس للقواعد الخاصّة بالنّحو، كان لا بُدّ لها من أصول مكتوبة، أو أن تكون معلومة لدى عُلماء النّحو، كما ذكر أنّ كِتاب سيبويه المُسمّى (الكتاب)، مليء بالأصول النّحويّة، ويُذكر أنّ الكاتبة خديجة الحديثيّ أشادتْ بالكتاب فقالت أنّه "من أوائل كُتب النّحو تأليفاً، قد بُنيتْ قواعده على هذه الأصول المنهجيّة".

ولم يظهر كتاب خاصّ بأصول النّحو حتّى جاء ابن جِنّي: (ت 392ه) فكانت أوّل محاولة لوضع كتاب في " أصول النّحو" ، حيث وضع " الخصائص " فكان زاخرا بالقواعد الأصوليّة كالعلّة والقياس والسّماع وتركيب اللّغات، وغير ذلك.و في القرن السّادس قام ابن الأنباري (ت 577ه) فوضع أوّل كتاب مفردٍ خاصّ بعلم أصول النّحو حيث رسم حدوده، وبيّن مسائله، وكان هذا الوضع على هيئة كتب أصول الفقه.من أجل ذلك كان

---

[18]- –خديجة الحديثي: الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه،. ص07و ما بعدها.

[19]-المرجع السابق: ص: 123-124.

ابن الأنباريّ هو مبتكر هذا الفنّ وأضافه إلى علوم اللّغة العربيّة، في كتاب أسماه " لُمع الأدلّة في علم أصول النّحو "، كما ألّف كتابا آخر باسم " الإعراب في جدل الإعراب "، تناول فيه موضوعات أصوليّة كثيرة. ثمّ جاء الإمام السّيوطيّ (ت 911ه) فألّف كتابه " الاقتراح في أصول النّحو وجدله." وجاء الإمام ابن علاّن (ت: 1075ه) – وهو صاحب كتاب " دليل الفالحين "-، فشرح كتاب السّيوطيّ في كتاب سمّاه " داعي الفلاح لمُخبّآت الاقتراح" ، وهو شرح ممزوج بالمتن. ثمّ جاء الإمام محمّد بن الطيّب الفاسي(ت: 1170ه) فشرح كتاب السّيوطيّ وسمّاه " فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح" ، وهو حواشٍ على الاقتراح، وهو كتاب نافع جدّا.

4- أشهر المؤلفين في عِلم أصول النّحو وأهمّ مؤلّفاتهم:

أ- الجُمل في النّحو الخليل بن أحمد الفراهيديّ.

ب- الكتّاب. سيبويه.

ج-كتاب المقتضب. محمد بن يزيد المبرّد.

د- الأصول في النّحو. أبو بكر محمد بن السّرّاج.

ه- عِلل النّحو. محمد بن عبد الله بن الورّاق.

و- تداخل الأصول اللّغوية وأثره في بناء المعجم. عبد الرّزاق بن فراج الصّاعديّ.

ز- الاقتراح في أصول النّحو. جلال الدّين السّيوطيّ.

ح- الخصائص. أبو الفتح عثمان بن جنّيّ.

أ- أصول النحو عند أبي بكر محمد بن السّرّاج.

يعد بابن السراج، من مشاهير النّحاة وأئمة الأدب في بغداد، ويَعُدُّه مؤَرِّخو النحو العربي من رجال المدرسة البغدادية في النحو. ولد أبو بكر محمد بن السِّري في مدينة بغداد، وفيها نشأ وترعرع وتلقى تعليمه الأولي، تتلمذ ابن السراج عند المبرد، وسمع منه كتاب سيبويه، وترك بعدها دراسة النحو لفترة وانشغل بالموسيقى، ثُمّ عاد إلى دراسة المسائل النحوية. يُعَدُّ ابن السراج من أشهر النحاة، وبعد وفاة المبرد انتهت رئاسة النحو إليه، فكان في زمنه إمام اللغة بلا منازع، وبعد أن ذاع صيته وارتفعت شهرته في بغداد تجمّع حوله عدد من الطلاب، واشتهر منهم أبو القاسم الزجاجي وأبو سعيد السيرافي وأبو الحسن الرماني، وجميعهم من أكابر النحاة. يُعتَبر ابن السراج من رجال المدرسة البغدادية، وهو التيار الذي يوازن بين آراء نحاة الكوفة والبصرة، غير أنّه كان يميل إلى النحو البصري أكثر، ويعود ذلك إلى تأثير أستاذه المبرد الذي يُعدُّ من قامات المنهج البصري. ألّفَ ابن السراج عدداً من الكتب، وأشهر مؤلفاته كتاب «الأصول في النحو» وهو يُعدُّ أول كتاب في أصول النحو، ويقال: «ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج بأصوله». تُوفِّي أبو بكر بن السراج في 316 من التقويم الهجري وهو ما يزال في شبابه .له بضع قصائد متناثرة بين الكتب لم تُجمع في ديوان.

لقد تفطن أبو بكر بن السراج ت316 هـ في بداية القرن الرابع الهجري إلى أهمية أدلة النحو ، وأسسه التي تُبنى عليه قواعده ، وولج ميدان الريادة من غير قصد منه إلى ذلك ؛ ذلك بأنه صرف جل اهتمامه في صوغ القواعد النحوية وبسطها وتبسيطها للمتعلم لما رآه من صعوبة مصنفات النحويين قبله ، وكذلك لحاجة

المتعلمين حينذاك إلى معرفة القواعد والفروع دون الخوض في خلافات التأسيس لإنتاج تلك القواعد، أو معرفة الأصول التي تبنى عليها. وهذا ما صرح به ابن السراج في كتابه "الأصول" بقوله :"أعلنت في هذا الكتاب أسرار النحو ، وجمعته جمعا يحضره، ورتبت أنواعه وصنوفه على مراتبها وفصلته بأخصر ما أمكن من القول، وأبينه ليسبق إلى القلوب فهمه، ويسهل على المتعلمين حفظه" . ولعلّ ابن السراج كان واضح القصد ومعلوم الهدف بتقديمه النحو للمتعلمين بأسلوب واضح سهل مختصر، يعني أنه يريد أن يعالج مشكلة حاضرة عند المتعلمين حينذاك وهي تعقيد التأليف فيه وصعوبة الفهم له. لذلك نجد ابن السراج قد نأى بنفسه بعيدا عن خلافات التأسيس والتعليل للقواعد النحوية ، وإن ذكر من ذلك الشيء القليل كما نص على ذلك بقوله : "وإنما تضمنا في هذا الكتاب الأصول والوصول إلى تضمن الأعراب ، فأما ماعدا ذلك من النظر بين المخالفين فإن الكلام يطول فيه ولا يصلح في هذا الكتاب ، على أنّا ربما ذكرنا من ذلك الشيء القليل " من هذا المنطلق نجد من الباحثين من عدّ أبا بكر بن السراج (ت316هـ) رائدا في علم أصول النحو، وهذا ما نراه مصرحا به عند محققي سر صناعة الإعراب الذين ذهبوا إلى أن حركة التأليف في النحو توجت في القرن الرابع الهجري باختراع علم أصول النحو على يد أبي بكر بن السراج المتوفى سنة 316 هـ في كتابيه " أصول النحو الكبير والصغير "، وذهب الدكتور زهير غازي إلى أن أهمية كتاب "الأصول في النحو " تأتي من كونه أول كتاب بحث في أصول وإن لم يقصر البحث على ذلك . وكذلك الدكتور علي أبو المكارم الذي ذهب إلى أن أوّل من يشار إلى أنه قصده بالدرس – أي علم أصول النحو - هو ابن السرّاج إذ يقول في ذلك:((أما علم أصول النحو فهو المحاولة المباشرة من النحاة لدراسة هذه الخطوط التي اتبعت في الإنتاج النحوي ... إذ أنّ أوّل من يشار إلى أنه قد قصده بالدرس هو : أبو بكر محمد بن السراي بن السراج المتوفى سنة 316 هـ في كتابيه " أصول النحو الكبير والصغير »" وإلى هذا الرأي ذهب أيضا الدكتور محمد عيد بقوله : " أوّل مؤلف مشهور عن هذا الموضوع – فيما أعلم- ابن السراج (ت316هـ).

ويعد كتاب «الأصول في النحو» من الكتب النحوية التي اكتسبت سمعة علمية واسعة بين كتب النحو العربية، فاستحسنه القدماء وعدُّوه في الرتبة والفضل بعد «الكتاب» لسيبويه و«المقتضب» للمبرد، وأكبر دليل على هذه المنزلة أن الكتاب حُفِظَ ولم يذهب مع ما ذهب من كتب ابن السراج المفقودة، وقد كان أحد الحاضرين ذَكَرَ كتاب «الأصول» بحضرة ابن السراج فقال قائل: هو أحسن من «المقتضب» فقال أبو بكر: لا تقل هكذا، وأنشد:

ولو قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيتُ صبابةً /// بسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفسَ قبل التَّنَدُّمِ
ولكن بكتْ قبلي فهيَّج لي البُكَا /// بُكاها فقلتُ الفَضْلُ للمتَقَدِّمِ

وفي الثناء عليه يقول الزبيدي(379هـ):"وله كتب في النحو مفيدة، منها كتاب في أصول النحو، هو غاية من الشرف والفائدة". كما أثنى عليه الأنباري (577هـ) ونَوَّه بكتابه حيث يقول:"وله مصنفات حسنة، وأحسنها وأكبرها كتاب «الأصول»، فإنه جمع فيه أصول علم العربية. وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب"ويقول ياقوت الحموي (626هـ):" وله من المصنفات: كتاب «الأصول»، وهو أحسنها وأكبرها وإليه المرجع عند اضطراب النقل واختلافه جمع فيه أصول علم العربية، وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب".

ولكتاب الأصول في النحو منزلة خاصة في نفوس النحاة وفي تاريخ النحو العربي، ولآرائه أهمية كبرى كتب لها من الذيوع والانتشار بين الدارسين ما لم يكتب إلا لقلة نادرة من المصنفات النحوية، مثل كتاب سيبويه والمقتضب لأبي العباس المبرد والتصريف لأبي عثمان المازني، فهذا العمل الذي قام به أبو بكر بن السرا ج في القرن الثالث الهجري، فجمع فيه أبواب النحو الصرف لقي إقبالاً وإعجاباً من معظم دارسي العربية، فقد جمع ابن السراج أصول العربية وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب في كتاب أصبح المرجع إليه عند اض طراب النقل واختلافه وهو غاية في الشرف والفائدة، فقد اختصر فيه أصول العربية، وجمع مقاييسها، ونظر في دقائق سيبويه، وعول على مسائل لأخفش والكوفيين وخالف أصول البصريين في مسائل كثيرة حتى قيل :ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج بأصوله.

والذي يقرأ كتاب الأصول يعرف أن ابن السراج كان منهجياً قوين النظرة في عرض مادة كتابه، ف لم يشأ أن يجري دراسته النحوية على النهج الذي ألفناه في كتب من سبقه مجافياً لمذهب التقنين والقواعد فقد أ درك أن مدار علم النحو في كتابه مبني على استخراج الأصول النحوية مع الالتزام بالدقة في كل موضوع، وقد بوب كتابه تبويباً يشبه إلى حد كبير تبويب كتاب سيبويه، لكن موضوعات أصول ابن السراج غير متداخلة كم وضوعات الكتاب لا يمكن التمييز بينها، فقد رتب على الشكل الذي ألفناه في الوقت الحاضر، فبدأ بمرفوعات الأ سماء، ثم المنصوبات والمجرورات، وانتقل بعد ذلك إلى التوابع كالنعت والتوكيد وعطف النسق وعطف البيان، والعطف بالحروف .ثم أشار إلى نواصب الأفعال وجوازمها، وزاد باب التقديم والتأخير، وباب الإخبار بالذي وبالألف واللام، وانتهى إلى مسائل الصرف.

وكتاب الأصول خال من المقدمة، قليل الاستطراد، موضوعاته المتشابهة محصورة في باب واحد لا في أبواب متفرقة كما هي الحال في كتاب سيبويه يبدأ بتعريف النحو العربي وينتهي بباب ضرورة الشاعر.

تجدر الإشارة هنا إلى عدد النسخ التي كانت بحوزة ابن السراج من كتاب سيبويه، فنراه كلما وجد كلمة أو عبارة فيها أكثر من احتمال أو لها أكثر من وجه من وجوه التفسير رجع إلى نسخة معينة مشيراً إلى صاحب تلك النسخة مبيناً أنها بخطه أو كانت ملكه :كالمبرد، وثعلب، والقاضي، فهو يشبه المحقق في هذا الزمن ، إذ إنه

يحاول إخراج النص سليماً، لا يشوبه الغموض، ولا يتطرق إليه الشك من قريب أو بعيد. ولقد نال الأصول إعجاب من جاء بعد ابن السراج من الباحثين، وأثنوا عليه، ووضعوه في مكانه اللائق به.

ب- أصول النحو عند ابن جني:

إنّ مساهمات ابن جني التأصيلية في النحو جعلته المؤسِّس الحقيقي لعلم أصول النحو، وأسهب ابن جني في الحديث عن أصول النحو في كتابه «الخصائص»، خاصّةً ما يتعلّق بالقياس والتعليل، ويعدّ ابن جني أوّل من فكّر في وضع هذا العلم على منحى أصول الفقه، وقد وَضَعَهُ على طريقة أصول الفقه الحنفي على وجه التحديد، بالإضافة إلى طريقة التأصيل في علم أصول الكلام والمنطق ومصطلح الحديث، وجاءت المباحث الأصوليّة مُبعثرة في كتاب «الخصائص»، وهو ما يعكس قِلّة التنظيم المعرفي المُصاحبة لنشأة علم الأصول، وقد حاول بعض

النحويين قبله الخوض في هذا العلم، وأشهرهم أبو بكر بن السراج في «أصول النّحو» والأخفش الأوسط في «المقاييس»، ورغم أنّ ابن السراج سمّى كتابه أصول النحو إلا أنّه كان بعيداً عن الأصول بمفهومها الصحيح المقابل لأصول الفقه، وكان في أكثره يُعنى بالقواعد العامّة الكليّة، ولم يشمل من أصول النحو سوى القليل، وهذا القليل ينتقده ابن جني ويرفضه سواه من النحويين، وقد استفاد ابن جني من «المقاييس» للأخفش فائدة كبيرة، وأكمل أبوابه الناقصة وأضاف إليه الكثير. [20]ويؤكّد ابن جني نفسه أنّه هو الذي وضع هذا العلم عندما يقول: «وذلك أنّا لم نرَ أحداً من علماء البلدين تعرّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه»، وقصد بالبلدين مدينتيّ البصرة والكوفة، واسترسل مُبدياً رأيهُ في كتاب ابن السّراج قائلاً: "فأمّا كِتاب أبي بكر بن السّرّاج، فلم يُلمِم فيه بما نحن عليه إلّا حرفاً أو حرفيْن في أولّه"، ويجب التّنويه أنّ ابن الجنّيّ كان قد أورد العديد من الأدلّة النّحويّة في أصول النّحو، مِثل القياس، والسّماع، والإجماع، والتّعليل.ويؤكد بلسانه أنّه هو الواضع لعلم الأصول فهو لا ينكر مساهمات الأقدمين، فيقول: «واعلم أنّ هذه المواضع التي ضممتُها، وعَقَدتُ العلّة على مجموعها، قد أرادها أصحابنا وعَنَوها، وإن لم يكونوا جاءوا بها مُقدّمة محروسة فإنّهم لها أرادوا وإيّاها نوَوا». وقد كانت مساهمات ابن جني في أصول النحو على دِقّة عالية، على الرغم من كونها البادئة في هذا المجال، بل وهناك من يُفضّل «خصائص» ابن جني على «لمع الأدلّة» لأبي البركات الأنباري الذي جاء بعده بقرنين من الزمن، من ناحية المنهجيّة في التعامل مع المسائل الأصوليّة، ولكن يبقى كتاب «لمع الأدلّة» أدقُّ من «الخصائص» من ناحية التقسيم والتفريع وعرض المسائل بصورة مُنظّمة مُهذّبة.

20-ينظر: فاضل السامرائي، ص. 141-143